obeikandi.com

# 8

# أمك، ثم أمك، ثم أمك ...

بعد سنة تقريباً من نكاحي، زواجي، وضعت مولودي الأول. طيلة تسعة شهور، كنت أشاهد جسمي يتغير، يزهر ويرعى معجزة الحياة هذه في داخلي. تعاملت مع الحمل والأمومة بحماسة كبيرة: تناولت طعاماً صحياً، قمت بتمارين خفيفة وقرأت كل كتاب استطعت وضع يديّ عليه عن الحمل والولادة. أنهيت بثقة الاستعدادات للولادة في المنزل، وكنت محاطة بقابلات يؤمنّ بذلك وقمن بدعمي طيلة الوقت. ولدت في حمّام قبو شقتنا الصغيرة، بحضور زوجي وقابلة، ولا شيء للمساعدة سوى الماء، علاجات موضعية وجرعة صحية من الدعاء (التضرّع). ولد ابني معافى، وكانت حماتي في الغرفة المجاورة وشقيقتي الصغرى تطهو الدجاج في الطابق الأعلى. كانت ولادة رائعة. وهكذا أصبحت أماً.

## إنجاب كائن حي

لطالما فكّرت بأن حمل حياة جديدة داخلي عمل عبادة، يقرّبني من الله. لماذا؟ لأن إنجاب الأطفال شيء يحبه الله، ويشجّع عليه الإسلام وهو مصدر خير في هذه الحياة، والآخرة على ما نأمل. لأن الصبر على الشدائد والصعاب ـ الغثيان الصباحي، حرقة المعدة، آلام الظهر، الأوجاع والآلام ـ عمل عبادة. أيضاً، الإزعاجات المتنوعة لحمل طفل وإنجابه جزء مما يجعل الأم تكسب المكانة الرفيعة التي تتمتع بها.

مراقبة جسمك يتغير، الإحساس بحركات الحياة النشيطة داخلك، رؤية صور لأصابعه، أقدامه الصغيرة وتشكيل الأضلاع الصغيرة الرائع، وقراءة كل ما يتعلق بالأشياء المختلفة التي يتعلمها ويفعلها الطفل ـ دون أي تدخل من جانبك ـ تجربة تحثّك على التواضع وتمنحك الإلهام. التواضع لأنكِ تعرفين أنكِ بنفسك كنت على تلك الحال مرة، ولأنه يتم تذكيرك بأنك لا تملكين أي سيطرة مهما كانت على ما يجري داخل جسمك ـ إذ إن الله، الخالق، يتولّى كل شيء، وإن الغرائز والعملية الطبيعية قد تولّت الأمر. إنها ملهمة أيضاً، لأن الله قد اختار أن يبارك رحمكِ بهذه الحياة الجديدة، لأنكِ تشاركين في طقس الولادة النبيل العتيق، لأنكِ تشعرين بأن جسدك ـ رحمكِ، المشيمة، القلب الذي يضخ كل الدماء الإضافية في جسمك ـ يجهد لتأدية دوره. إنها تجربة مثيرة.

ينطبق الشيء نفسه على الولادة. يمكن للمزيج القوي من التوقع، الألم، الأدرينالين أن يكون منعشاً، إذا اخترت أن تعديه كذلك! بالفعل، نستطيع جميعنا أن نستمد الإلهام من قصة مريم، والدة السيد المسيح عليه السلام. وفقاً لما ورد في القرآن، كانت أمها قد نذرت ما في بطنها محرراً لوجه الله، عندما وضعت بنتاً، خشيت ألا تستطيع الوفاء بذلك الوعد. لكن الله كان قد اختار ماري (مريم) من بين نساء العالمين؛ لتكون من سيزورها الملاك جبريل. أخبرها أنها ستحمل طفلاً، طفلاً صالحاً سيكون وجيهاً في هذه الدنيا وفي الآخرة: النبي المسيح (عيسى). كانت مريم، التي لم تعرف رجلاً من قبل، مصدومة وتسأل كيف يمكنها أن تحمل طفلاً دون أن يمسّها بشر. أجاب الملاك: ﴿**كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ**﴾ ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾.

o p e l k a n d i . c o m

وهكـذا اعتكفت ماري (مريم) وحيدة في وادٍ، بعيداً عن قومها. عندما فاجأهـا المخاض، بكـت ألماً وباركهـا الله بماء تحت قدميهـا ورطباً جنياً للتخفيف من معاناتها وجعلها تسـتعيد قوتها. باركها أيضـاً بغلام، المسيح (عيسى)، الذي كان نبياً عظيماً دعا قومه لعبادة الله، والذي خفف معاناة الكثيرين بمشيئة الله.

هناك شـيء خاص في تجربة مـريم، وحدها في وادٍ مهجور، عذراء تلد طفلاً، شيء يلهمنا جميعاً لأن نكون قويات وواثقات من أنفسنا، نثق بالله، ونعرف أنه خلقنا وجهّز أجسامنا لهذه المهمة.

مجتمعنا فريد تماماً مقارنة بالمجتمعات الإسـلامية، حيث إن الرجال يكونـون حاضـرين غالباً عنـد ولادة أطفالهم. ربما يعود هـذا إلى حقيقة أن معظمنـا من خلفيـات غربية حيث يحضـر الآباء بشـكل روتيني ولادة أطفالهـم. على أي حـال، تاريخياً وحتى اليوم، يبقـى الرجال بعيدين عن عملية الولادة، التي يُنظر إليها بأنها شيء خاص بالنساء.

يتصـرف أزواجنا كأنهم شـركاء ولادة في المستشفيات، مراكز الولادة وخـلال الـولادة في المنـازل. في المستشـفى، لا يمكـن الاسـتغناء عنهـم لتقـديم الدعم، التشـجيع، وتنبيه الأم التي تضـع مولودها بأن تتذكر الله وتتضرع له، وألا تفقد الأمل أو تصاب باليأس. يتأكدون أيضاً من الالتزام بالإرشـادات الإسـلامية، خاصـةً ما يتعلق منها بخصوصـياتنا وضـمان احترام رغباتنا. هذه بعض من المشكلات الكبيرة للولادة في المستشفيات، فيما يخص الأخوات: كوننا نسـاء نغطي أنفسنا عادة أمام الغرباء، نشعر بفقدان الخصوصـية والسـيطرة على بيئة مخاضنا بشـكل أكثر وضوحاً.

في خصوصية منزلك، خلال الولادة في البيت، تكونين مرتاحة في حيّزك الخاص بكِ: لا يكون عليكِ أن تقلقي بشأن طلاب الطب الذين يراقبونك على تلك الحالة، بشأن الغرباء الذين يدخلون «للكشف» على حالتك، يربطون قدميكِ أو يقولون لكِ بأن تضطجعي على جانبكِ و «تدفعي»! مع وجود قابلة عادة، تستطيعين قضاء مدة مخاضكِ كما ترغبين، وتكونين حرة في اتخاذ الوضعية التي تجعلك مرتاحة. يمكنك الاستماع إلى تلاوة القرآن، تناول الطعام ولن تقلقي بشأن تسريحة شعرك بعد ساعتين من المخاض. وبعد ذلك، هناك سريرك الخاص بكِ، على أمل أن يكون زوجك، والأطفال الأكبر سناً، ما يزالون نائمين في غرفهم.

**«التخطيط للطفل»**

الشيء الذي يسبب إزعاجاً كبيراً لبعض الأمهات غير المسلمات أن معظم الأخوات لا يستعملن شكلاً «معتمداً» للحدّ من النسل. هناك عدّة أسباب لذلك. إحداها هي أن المسلمين يؤمنون أنها مشيئة الله في أن تصبح المرأة حاملاً أم لا. بوصفنا بشراً نعرف أننا نستطيع أن «نعقلها ونتوكل» نتخذ الخطوات الضرورية لضمان أن تكون النتيجة ممتازة، لكن أخيراً، نعرف أن النتيجة النهائية في يدي الله: إذا كان مُقدّراً لامرأة أن تحمل، فسيحدث ذلك.

كما قال النبي ﷺ عندما سُئل عن الحدّ من النسل: «لو أن الماء الذي يكون منه الولد أهرقته على صخرة لأخرج الله منها ولداً» رواه أحمد.

سبب آخر لعدم شيوع الحد من النسل على نطاق واسع هو أنه يتم تشجيع المسلمين على إنجاب الكثير من الأطفال، إنه جزء من الدين. قال النبي ﷺ: «تزوّجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم [يوم القيامة]» رواه مسلم. نتيجة لذلك، نسبة مواليد المسلمين في كل أنحاء العالم هي ضمن الأعلى، ومجتمعنا ليس مختلفاً. بخلاف أغلبية العائلات في هذا المجتمع، ليس استثنائياً أن ينجب الزوجان المسلمان أربعة أطفال أو أكثر.

الآن، بالنسبة للكثير من الناس اليوم، العائلات الكبيرة رمز للتخلف والأيام الغابرة عندما لم يكن البشر يعرفون كيف يسيطرون على عملية تناسلهم. يرى المسلمون الأشياء بشكل مختلف: في عيون الله، الأطفال نعمة، وليس نقمة أو «قيد على الحياة». لا نرى أن حياتنا تتوافق مع نوع معين من أسلوب المعيشة، السيارتين، حديقتين أمامية وخلفية، عطلة في الخارج كل سنة، ولهذا لا نعد الأطفال يقفون عائقاً في سبيل تحقيق ذلك. الأطفال أغلى من كل تلك الأشياء المادية، ويتم معاملتهم على هذا الأساس. لهذا يحتفل المسلمون الملتزمون بكل مستوياتهم المالية بالعائلات الكبيرة ويبتهجون بأنباء إضافة مولود جديد إلى الأمة، ويتضرعون بالدعاء أن يصبح الطفل مسلماً صالحاً، وعبداً مخلصاً لله.

إضافة إلى ذلك، يعد الكثير من الأئمة أنه لا يجوز تحديد عدد الأطفال خوفاً؛ من التعرض لمشكلات مالية. ويعود هذا إلى قول الله:

﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 31].

لهذا نحن نؤمن بأن كل طفل يولد ورزقه مقسوم من الله، بشكل مستقل عن والديه. على أي حال، هناك أوقات يصبح فيها منع الحمل ضرورياً. وفقاً للشريعة الإسلامية، في موقف قد يقود فيه الحمل أو الولادة إلى الإضرار بالأم أو وفاتها، تأتي سلامة الأم أولاً. في مثل تلك الحالات، يتم استعمال موانع الحمل عادة، إضافة إلى حالات أخرى تبرز فيها الحاجة لتلبية مطالب الحمل والولادة.

## «ليس لديك أطفال بعد؟»

في الماضي، وفي معظم المجتمعات حول العالم، كانت قيمة المرأة تُقاس بدورها أماً إذا لم تكن تحمل، كانت غير ذات قيمة، تشغل حيّزاً دون جدوى، وكان يتم حثّ زوجها في العادة على أن يستبدل بها امرأة تستطيع منحه الذرية. في بعض الثقافات، ما يزال ذلك سائداً.

على أي حال، ليست تلك هي الحال وفقاً للإسلام. يقول الله في القرآن:

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: 49 - 50].

لا تعد المرأة المسلمة الملتزمة إنجاب الأطفال هو هدفها الوحيد في الحياة، لقد خُلقت لتعبد مولاها. إذا كانت تستطيع القيام بذلك عبر إنجاب الأطفال، فستكون تلك نعمة، لكن إذا لم تكن تستطيع ذلك، فهناك طرق أخرى عديدة للتقرّب من الله وعيش حياة إسلامية.

أخبرتني أم محمد: «في أحيان كثيرة، لا تستوعب ثقافة المجتمعات الإسلامية الإسلام حقاً. نعرف أن علينا الإيمان بالقدر، القضاء الإلهي، وأن لا شيء يحدث إلا بمشيئة الله. ربما يقوم الرجل والمرأة بالعمل، لكن

الأمر يعود لله حتى تحمل المرأة. كل شيء منوط بمشيئة الله سواء أنجبت صبياً أم بنتاً، سواء كنت غنية أم فقيرة، إنها إرادة الله».

قادني ذلك إلى مناقشة قضية «شائكة» أخرى، كيف يتم التعامل مع البنات في الإسلام.

قبل الإسلام، مارست المجتمعات العربية عادة وأد البنات، وذلك بدفن الرضيعات فيما لا يزلن على قيد الحياة، وبالفعل، في العديد من المجتمعات التي يكون فيها الإسلام الثقافي المعيار، ما يزال هناك وصمة في إنجاب البنت. يدين الله هذا في القرآن بأشدّ العبارات:

**﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾** [النحل: 58 - 59].

هناك أيضاً عدّة أحاديث تتكلم عن فضل تربية البنات والاعتناء بهن. قال النبي ﷺ: «من عال ابنتين أو ثلاث بنات، أو أختين أو ثلاث أخوات حتى يمتن أو يموت عنهن كنت أنا وهو كهاتين». وأشار بإصبعيه السبّابة والوسطى رواه أحمد.

> «في مجتمعنا، إن كان صبياً أم بنتاً، الأمر سيّان. إذا كان لأخت الكثير من الصبيان، ثم أنجبت بنتاً، يفرح الجميع؛ وإذا كان لديها الكثير من البنات ثم أنجبت صبياً، يحدث الأمر نفسه» ياسمين.

### الأم، الأم، الأم ... ثم الأب

في الكثير من الثقافات في كل أنحاء العالم، تحتل الأم مكانة عالية مرموقة: إنها حاضنة الحياة، حاملة أجيال المستقبل، مربّية أفراد الغد،

obeikandl.com

وهـي تعالج، تهـدّئ، تواسـي وتحب،إنها أسـاس المجتمع القـوي والمحب. الإسلام ليس مختلفاً. يقول الله في القرآن:

﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَـانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَـى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: 14].

سأل رجل النبي ﷺ: «من أحق الناس بحسن صحبتي؟»

أجاب النبي ﷺ: «أمك».

قال الرجل: «ثم من؟».

كرّر ﷺ: «أمك».

سأل الرجل: «ثم من؟».

كان الجواب: «أمك».

سأل الرجل مجدداً: «ثم من؟».

أجاب النبي ﷺ: «ثم أباك».

بنـاءً على هـذا وأحاديث أخرى كثيرة، تحتل المـرأة مكانة عالية رفيعة في حيـاة المسلم. لا داعي للقول: إن تلك المكانة صعبة المنال، وتتطلب جعل المنـزل مريحاً وملاذاً آمناً إضافة إلى التحلـي بالصبر تجاه كل الصعاب والشدائد التي ترافق تربية الأطفال وتحضيرهم للحياة.

## عمل المرأة

كما ذكرت سـابقاً، العنايـة بالمنزل جزء من دور الزوجة المسـلمة. في البداية، وجدت ذلك صـعباً جداً، لأنني لم أفعل ذلك أبداً من قبل بعد أن

ترعرعت في زيمبابوي مع مربيات منزل طيلة حياتي. أيضـاً، وجدت الأمر رتيباً ومملاً، ومضـيعة للوقت كما كنت أعتقـد. ليس هناك تفاخر يرتبط بالعناية بالمنزل في مجتمعنا، خاصـةً للمرأة الشـابة. لن يكون أمراً جيداً أن تنشـغل المرأة كثيراً بإضاعة وقتها في تنظيف ألواح الأرضية إن لم تكن ستدّعي، بالطبع، أنها «آلة التنظيف» عندها، يمكن تقريباً التغاضـي عن ذلك. لكن عندما جاءت شـقيقتي الكبرى لرؤيتي مـن وراء البحار، قالت شـيئاً جعلني أعيد التفكير بالأمر. كنت أكوي بعض الملابس، وأشتكي أنني لا أحب ذلك، عندما قالت لي: «وما الخطأ في العناية بمنزلكِ؟».

وقلت لنفسي: إن هذا صحيح، ما الخطأ في العناية بمنزلكِ، والحفاظ على نظافته ومظهره الجميل؟ ثم فكّرت في الثواب الذي سـأناله من الله، في هـذه الحياة والآخرة، إذا اعتبرت عملي المنزلي نوعاً من العبادة ـ كان سـيعني أن كل ذلك الجهـد المبذول في الحفاظ على المنزل بأفضـل حال، بغض النظـر عن رتابته، جدير بالاحترام. أصـبحت محرجة من محاولة عائلتـي المبطّنة، برغـم طبيعتها اللطيفة، دفعي للعنايـة أكثر بالمنزل ـ لم أكن أريد أن يعدوني مهملة؛ لهذا قرّرت تنقية عملي من الشـوائب. توقفت عن رؤية الأمر بوصـفه مضـيعة للوقت وبدأت أعده عبادة، وأنني أقوم بما ينبغي علي فعله، ولم أعد أفكّر به كثيراً حتى أسـتطيع التركيز على أشـياء أخرى أكثر إمتاعاً. وعندما فعلت ذلك، لم يعد الأمر عبئاً ثقيلاً.

«لا يمكننـي القول: إنني أسـتمتع بأعمال المنـزل طيلة الوقت، لكن لأننـي أراه عبـادة، أسـتطيع القيام به، يمنحني ذلـك القدرة على القيام به» سارة.

في عيون الله، تحتل «ربّة المنزل» منزلة رفيعة مرموقة للدور الذي تلعبه في نطاق العائلة ومن ثم في المجتمع ككل، إنها الغراء الذي يجمعها معاً. الموقف السائد بين الرجال (والنساء) أن العناية بالمنزل وتربية الأطفال عمل أدنى مرتبة وأقل مكانة نوعاً ما، والذي لا يمكن فصله عن وجهة النظر الإسلامية. يدرك الدين بأن المنزل هو أول مكان لتدريب كل أفراد المجتمع وأنه ينبغي إيلاء بيئته الأولوية، لا أن تترك حتى آخر القائمة. إذا كانت الحياة في المنزل تسودها الطمأنينة والمحبة، فسيحظى نتاجها ـ الأطفال ـ بفرصة أفضل لأن يصبحوا راشدين متوازنين. لهذا، لا ينبغي أبداً التقليل من قيمة المرأة التي تعتني بالمنزل والعائلة.

## الاختبارات والنعم

يقول الله في القرآن:

**﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾** [النحل: 72].

لهذا، يرى المسلمون الأولاد نعمة من الله، نعمة نكون ممتنين لها. نراهم أيضاً أمانة: إنهم وديعة من الله لدينا والعناية بهم واجب ديني وعبادة.

> «عندما تُرزقين بأولاد، يجعلك ذلك تنظرين إلى العالم بشكل مختلف، تريدين أن تجعليه مكاناً أفضل لأولادك؛ لأنهم ليسوا لك، إنهم لله وقد منحهم لنا على سبيل الأمانة» ليلى.

ولد فارس، ابن هاجر، قبل أن تبدأ الالتزام بالتعاليم الإسلامية، وقد سألتها عن الفرق في كونها أماً غير مسلمة ثم مسلمة.

«دوري أماً مسلمة مختلف تماماً عنه قبل الإسلام. كنت معتادة من قبل على التصرف كما لو أنني أمتلك ابني. لا أفعل ذلك الآن، أقدّر تماماً أنه «أمانة» لدي، وأنه سيتم سؤالي عمّا فعلته بالأمانة. الآن، أركّز أكثر على الحياة الآخرة في تربيته، وكل ما يفعله بعد ذلك بحياته يبقى من شأنه الخاص. إن شاء الله، سيكون ذلك الصواب».

لأن أولادنا أمانة في أعناقنا، ينبغي أن نعاملهم كما نعامل أي شيء نفيس يخص شخصاً آخر: بعناية. لهذا من المهم بالنسبة لنا أن نعاملهم جيداً، نعتني باحتياجاتهم، نتحلى بالصبر معهم، نعلّمهم الصواب من الخطأ ونمنحهم كل الحب، العناية والاهتمام الذي يحتاجونه حتى يصبحوا مسلمين ورعين واثقين من أنفسهم. توضح سارة، التي لديها طفل يبلغ من العمر سنة واحدة، الأمر بالطريقة الآتية: «إنه مثل أمانة ـ وديعة ـ أودعها الله لديكِ. وهذا ما كنت أعتبره أحياناً عندما كان ينتابني الكسل بشأن تغيير مئزره أو أي شيء آخر للعناية به. ينبغي أن تتذكري أنه نعمة من الله وأنه يتعين عليكِ بذل قصارى جهدكِ معه. سوف تكونين مسؤولة عن تشكيله، تعليمه، تربيته، تنشئته وفقاً للإسلام».

لكن الأمومة، كما يعرف الجميع، ليست حياة رغيدة. مثل كل شيء في الحياة يمنحكِ ثواباً كبيراً، تتطلب عملاً شاقاً، تفرّغاً وأحياناً تضحية: يمكن للأطفال أن يختبروا صبركِ أيضاً ويدفعوا بك إلى أقصى حدود الاحتمال. بالفعل، يصفهم الله عندما يقول:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: 28].

وبالفعل، يختبر الأولاد أهلهم على عدّة مستويات، دينك، وقتك، جسمك وحالتك الذهنية، أي شخص ينبغي عليه أن يتحمّل نوبة غضب في وسط سوق مكتظّ يعرف ذلك. لكن، لأن تربية الأولاد إحدى مسؤولياتنا الدينية الأساسية، مسؤولية سوف يحاسبنا المولى عنها، تحظى بأهمية متزايدة في حياتنا، إنها أولويتنا القصوى بوصفنا أمهات مسلمات.

## أمهات طيلة الوقت

بين الإرضاع الطبيعي، تغيير المئزر والنوم المتقلّب، شعرت دون خجل أو تحفّظ بحب جارف نحو طفلي. كنت مذهولة من معجزة الولادة، وأصابتني آنذاك الدهشة من رؤية أنامله الصغيرة الرائعة وعينيه الكبيرتين الجميلتين.

يستند أسلوب العناية بالطفل الذي يفضّله معظم المسلمين على مناحي متعددة من الطريقة التقليدية، منها الإرضاع الطبيعي والاشتراك معه في سرير أو في غرفة النوم خلال الشهور الأولى من حياته. لكن، الأكثر أهمية، أن نسختنا من الأمومة تتضمن العمل أمهات طيلة الوقت.

لم يخطر ببالي أبداً أن أخرج للعمل بدلاً من الاعتناء بطفلي، وأنه ينبغي بي قضاء الوقت في المكتب بدلاً من القراءة معه، وأن مكاني الطبيعي في اجتماعات الإدارة عوضاً عن مجموعة الأم والرضيع. لم أشعر أنني مطالبة بالبقاء في المنزل للعناية بطفلي، شعرت بأن ذلك امتياز، وكنت ممتنة؛ لأنني استطعت انتقاء ذلك الخيار.

طيلة قرون سـابقة، وفي كل ثقافة وحضـارة تقريباً، كان مكان الأم في المنزل، تعتني بأطفالها. يعلّم الإسـلام هذه القيم نفسها. برغم أن أغلبية الأمهـات اليـوم يعملن وقتـاً جزئياً أو كاملاً ويسـتفدن مـن مجموعة من خيارات رعاية الطفل لضـمان العناية بأطفالهـن، إلا أن الكثيرات يخترن البقاء في المنزل للعناية بأطفالهن طيلة الوقت. سواء كن أمهات تقليديات مع قيـم «محافظة» أو «أمهات ولـودات» يهتممن بتربيـة أطفالهن قربهن قدر المسـتطاع، يعتقد عدد كبير من النساء (والرجال) أن الأم أفضل من يمنح الرعاية للطفل. تبدو وجهة النظر هذه سائدة بين نساء المسلمين بغض النظـر عمّـا إذا كانت الأخت متعلمة أم لا، كان لديها عمل رائع سـابقاً أم لطالما رغبت بأن تكون ربّة منزل حالما تصبح أماً، يصبح طفلها أولوية لها. غني عن القول: إن الأم المسـلمة لا تسـتطيع العمل خـارج المنزل. بالفعل، في العديد من المجتمعات والجاليات الإسـلامية، تتولى الشقيقات، العمّات والجـدّات العناية بالأطفال فيما تخرج الأم للعمل طبيبة، طبيبة أسـنان، معلّمة، طالبة أو أي نوع آخر من الأعمال الذي تزاوله النساء المسلمات.

جزء من عمل الأم المسـلمة تربية أولادها على مُثل عليا قوية صـالحة. تلك المثل العليا التي تجسّـد جوهر الشخصـية الصـالحة: الإيمان بالله، الاسـتقامة، إضـافة إلى القيم العامة في التواضـع، الصـدق، الشجاعة، الكـرم، اللطـف، التعاطـف، الرحمـة والقوة. أفضـل هذه المثـل هي التي جسّدها نبينا محمد ﷺ، وتعليم أطفالنا ما كان يفعله يحثّهم على محبته واتّباع سُـنّته، وهذه واحدة من أولوياتنا الرئيسـة. تتضـمن مُثل المسلمين العليا الأخرى الأنبياء، الصحابة والأولياء الصالحين من الماضي، إضافة إلى بعض المسلمين البارزين في الزمن الحاضر.

تتضمن هذه التربية أيضاً زيادة معرفة الطفل بالله، محبته له والهدف من وجوده على هذه الأرض. يتضمن ذلك تعليمه تقاليد الإسلام وشعائره، شعائر الطهارة (الوضوء)، الصلوات الخمس اليومية، الصيام في رمضان، الصلوات المختلفة والأدعية المفضّلة خلال اليوم، عند ارتداء الثياب، تناول الطعام أو مغادرة المنزل، على سبيل المثال. في الجوهر، تربية طفل مسلم عمل يتصل بدين المرء، والعمل في مهنة يتصل بحياة المرء الدنيوية. بالنسبة للمسلمة، يبدو واضحاً أنها ستكون له الأولوية.

على أي حال، ليست كل أم تلزم المنزل مرتاحة لذلك الدور. لطالما كان لدي شيء خاص بي، مشروع ما أو شيء آخر انشغل به؛ كنت قد تفاديت، حتى إذا كان ذلك في ذهني فقط، لقب «ربّة منزل طيلة الوقت». اعترفت مي بصراحة كاملة أن كونها ربّة منزل لم يكن ما تريده تماماً، وأخبرتني قائلة: «لم أرد أبداً أن أكون ربّة منزل، ولا أحب تلك الكلمة، ولا أحب تلك المكانة. برغم أن ربّات المنزل يتمتعن باحترام كبير في الإسلام، إلا أن ذلك الدور لا يناسبني. لقد نشأت لأكون امرأة عاملة. أحياناً، الموقف يفرض نفسه ويكون عليّ أن أذكّر نفسي بأن عائلتي هي أهم شيء في حياتي، وأنها هبة من الله ثم تغمرني السعادة، وعندما تغمرني السعادة، أجد المزيد من الوقت لنفسي».

## المعلمة

لدى العائلة الإسلامية المثالية مؤسسة قوية: الإيمان بالله وعبادته. إنها أساس وسبب وجودها. كل شيء في تلك العائلة ــ العلاقات بين أفرادها، سلوكها، طموحاتها، نشاطاتها ـ يتمحور حولها. بالنسبة لمن

اعتنق الإسلام، كان ذلك مفهوماً جديداً بالكامل. كنا نعرف أن أحد أهم أدوارنا، بوصفنا أمهات، هو التعليم. لكن، في سبيل القيام بذلك الدور، علينا أن ننظر مجدداً إلى عائلاتنا، طفولتنا والتأثيرات التي ترعرعنا معها، الحكم على الأشياء التي أردنا مضاهاتها والأشياء التي أردنا تنحيتها جانباً. في جهودنا لإنشاء عائلة إسلامية تستحق ذلك الاسم، دون كبار في السن، معرفة أو تجربة لترشدنا، وجدنا أنفسنا منغمسات في عملية تعليمية، مستمرة حتى يومنا هذا.

كوننا اعتنقنا الإسلام، كان خيارنا جميعنا واضحاً، اخترنا الإسلام على معتقداتنا السابقة. لم يمر أولادنا بعملية اتخاذ القرار تلك. برغم أن الطفل الذي يولد لأبوين مسلمين أو أب مسلم يعد مسلماً، إلا أن ذلك لا يضمن بأي طريقة كانت صحة معتقده، إيمانه. الإيمان ليس وراثياً كما يبدو أن الكثير من المسلمين يعتقدون اليوم. لأن تعليم الإسلام هو وظيفتنا الأساسية بصفتنا والدين، ينبغي أن نشرح الدين حتى يكون مفهوماً وموضع تقدير من قبل أطفالنا، ويكون لديهم من ثم إيمان حقيقي يستند إلى المعرفة، وليس الخرافات، المفاهيم الثقافية أو الخوف. كونها معلّمة مدرسة بنفسها، تشعر رابية بأن الأخوات بحاجة لأن يتذكرن كيف يبدو عليه الأمر بالنسبة للجديد على الدين.

قالت: «ينبغي أن نتذكر الطريقة التي تعلمنا بها الدين. لقد تم شرح كل شيء لنا، قرأنا، تعلّمنا وتلك هي الطريقة التي يجب أن نعلّم بها أبناءنا أيضاً. ينبغي أن نعود إلى ذلك الزمن عندما لم نكن نعرف شيئاً عن الدين، وتعليم أبنائنا بالطريقة نفسها».

إحدى مزايا العيش في الغرب هي أن المسلمين يستفيدون من الأشكال الغربية لوسائل الإعلام ويعيدون صياغتها خدمة للإسلام. إحدى هذه الأشكال هي وسائل إعلام الطفل ـ الكتب، الأشرطة، الألعاب، الأقراص المضغوطة ـ وجميعها متوافر الآن لمساعدة الأطفال في التعلّم عن الإسلام بطريقة ممتعة. يتعلم الأطفال، من خلال القصص والأغاني، عن كل الأنبياء وقصصهم، إضافة إلى النبي محمد ﷺ وآله وصحابته، وتجعلهم يفهمون إرثهم وتاريخهم بوصفهم مسلمين، إضافة إلى منحهم نوعاً من الفخر بطريقة عيشهم.

## التعليم الإسلامي في المدرسة

تقوم معظم الأخوات المذكورات في هذا الكتاب إما بإرسال أطفالهن إلى مدارس إسلامية أو تعليمهم في المنزل. لا يفهم بعض الناس أهمية المدرسة الإسلامية، لكن الكثير من المسلمين الملتزمين يشعرون بأنها بديل «ألطف» عن المدرسة الحكومية غير الإسلامية، التي يتعرض فيها الأطفال لكل أنواع التأثيرات التي يتعارض الكثير منها مع معتقداتنا.

تشدّد بيئة المدرسة الإسلامية على الوعي بإرادة الله في حياتنا، وكيف ينبغي أن تكون علاقة الطفل بمولاه، وأن يتعرف عليه، يحبّه ويفهم واجباته تجاهه. في أفضل حالاتها، تغذّي تلك البيئة محبة الدين، الآداب والأخلاق الإسلامية والطريقة الإسلامية في العيش. إنها تؤثر في علاقته مع الآخرين، كيف يعامل غيره، آدابه، لغته، أفعاله؛ وكذلك شعوره الخاص بالثقة والهوية، وأخيراً نوعية الشخص الذي سيصبح عليه. تساعد على جعل الطفل المسلم آمناً وواثقاً بهويته أو هويتها الإسلامية، ولا يشعر

بالإحراج لأنه لا يستطيع تناول شطائر لحم الخنزير، أو يشعر بالخجل عندما يحين وقت الصلاة أو يكون صائماً، ولا يكون هناك مشكلة في ارتداء الحجاب. بالمختصر، سيكون لديه فرصة لرؤية طريقة الحياة الإسلامية - طريقته في الحياة - بشكل «طبيعي».

## العيد وعيد الميلاد

مثال ملموس عن فائدة أخرى لبيئة المدرسة الإسلامية هو أن الأطفال المسلمين لا يشعرون بالخجل لعدم احتفالهم بعيد الفصح أو الاشتراك في ألعاب عيد الميلاد. وفقاً للسُّنّة، المسلمون لهم عيدان في السنة: «عيد الأضحى وعيد الفطر». رمضان شهر البركة، وكل جمعة يوم خاص. تلك هي الاحتفالات التي شرعها الله. لهذا كيف يشعر الطفل المسلم عندما يشاهد أن كل الكتب، الأفلام والإعلانات تعرض الهدايا الملونة تحت الشجرة في عيد الميلاد، الأضواء البرّاقة في الشعانين والشموع المشتعلة على كعكة عيد الميلاد؟ من الطبيعي أن يرغب الطفل بكل تلك الأشياء، لكن المسلمين ليس مسموحاً لهم الانضمام إلى تلك الاحتفالات. إذ كيف يقوم الوالد المسلم، الذي يعيش في الغرب، بالتعويض عن كل ذلك.

بدلاً من مجاراة ما هو سائد والذي يتناقض مع معتقداتنا الدينية، كما يفعل الكثيرون هذه الأيام، نلجأ إلى أشياء بديلة مرتجلة. لم يسبق لابني أن أقام حفلة عيد ميلاد في حياته، لكن في عيد الأضحى قبل عدّة سنوات، أقمنا حفلة خاصة لكل أصدقائه مع بالونات، ألعاب، سباقات وحلويات وهدايا كثيرة. تعمل بعض الأخوات على تحويل كل جمعة إلى مناسبة خاصة ويبذلن جهوداً كبيرة في عيد رمضان (الفطر)، شراء ملابس جديدة،

القيام بمشروعات زيارة الأقارب، تنظيم حفلات للأطفال، نزهات أو رحلات إلى الخارج.

«حتى إذا كان ذلك سيرهقني، فسأفعل ذلك وأصحبهم في نزهة وأقوم بأشياء معهم؛ لأنه ينبغي أن يكون لديهم ذكريات عن الأعياد، بغض النظر عن الطريقة. يجعلهم ذلك فخورين بدينهم وما هم عليه» مي.

## المناهج والإسلام

ميزة أخرى للمدرسة الإسلامية تتمثّل في وجود فرصة أفضل لتحقيق توازن بين المعرفة الإسلامية ومقررات المناهج مثل الرياضيات واللغة الإنكليزية. لأن الإسلام يركّز كثيراً على التعليم ـ وهناك الكثير مما ينبغي تعلّمه ـ لا يمكن تنحية ذلك جانباً في ثقافة الطفل المسلم. لا يتعلق الأمر بإرسال طفلك للحفظ في المدرسة الدينية يومياً في المساء بعد المدرسة العادية، هناك ما هو أكثر من ذلك بكثير. ينبغي أن يحصل الطفل على مساعدة؛ حتى يفهم دينه كما ينبغي ويحبّه ويكون فخوراً به.

«أعتقد أن أهم شيء ينبغي أن يتعلمه الأطفال هو الدين؛ لأنه سوف يصحح أي شيء آخر. يقدّم الدين الإطار العام» سارة.

هذا لا يعني أن الأخوات يعتقدن بضرورة تجاهل التعليم الموجود في المناهج المدرسية. على أي حال، من السهل أيضاً التشديد كثيراً على المناحي الدنيوية في تعليم الطفل، كما شرحت سارة لي: «بعض الآباء طموحون جداً فيما يخص التحصيل الأكاديمي، ويريدون منكِ أن تكوني

مؤهلة لكن ذلك ليس الهدف النهائي لنا، وإنما وسيلة لبلوغ الهدف. أعتقد أن الأمر يدور حول التوازن».

شخصياً، أريد تعليماً جيداً لأبنائي، تعليماً يتضمن معرفتهم بالدين؛ وأن يجيدوا كتابة اللغات وتحدثها؛ وأن يتعلموا العربية، وأن يفهموا الرياضيات، والعلوم، والأشياء التي تتم بها الأمور؛ وأن يفهموا ويتعلموا كيفية تلاوة وحفظ القرآن؛ معرفة تاريخ وثقافات العالم إضافة إلى إرثهم الإسلامي؛ تطوير مهاراتهم الإبداعية عبر الفن؛ أن يتعلموا الانضباط وقدراتهم الجسدية عبر الرياضة؛ وأن يتحلّوا بآداب جيدة وشخصية متواضعة، ويمتلكوا حباً للعلم والقراءة، وحب اطلاع بشأن الحياة والناس ورغبة بعيش الحياة بكل ما فيها من معنى. إنه ذلك التوازن بين التطور الروحي، الذهني والجسدي ـ بين الدين والدنيا ـ الذي نسعى، نحن الآباء المسلمين، لتحقيقه.

## التوازن بين الدين والدنيا

في الحياة اليومية، من السهل أن تلهينا مشكلات الدنيا، الحياة الدنيوية. ربما نكون نعمل بجد كبير على مشروع معين، أو نتعرض للضغوط في العمل، بحيث يتراجع الدين إلى الخلف: نكتشف أننا لا ندرس كما كنا من قبل، أو أننا لم نعد نصلي بالتركيز والنشاط نفسه، أو نقرأ القرآن. يقدم لنا مجتمعنا الكثير من العوامل التي تشتت انتباهنا في إطار العمل والمتعة، ولهذا ليس صعباً أن نجد أن ذهن المرء قد انشغل كلياً بكل تلك النشاطات ـ وأهمل عبادة الله. هذا ليس معناه أنه ينبغي بنا الصلاة أو قراءة القرآن في كل دقيقة ـ المسلم مطالب بالتوازن وهذا ما كان عليه نبينا ﷺ. على أي حال، مثلما لا تستطيع طالبة تدرس لامتحان مهم أن تتخلى تماماً عن

كتبها للخروج والتنزّه في الطريق العام، كذلك المسلم لا يستطيع الابتعاد عن عبادة الله لتحقيق مطالب دنيوية لوقت طويل. لهذا ينبغي علينا تحقيق توازن بين حياتنا الدينية ـ الدين ـ وشؤوننا الدنيوية ـ الدنيا ـ في أنفسنا وفي أطفالنا أيضاً.

مثل والد سارة، هناك بعض الآباء المسلمين الذين يحبّون الدنيا لأبنائهم ـ تعليم جيد، راحة مادية، مكانة مرموقة، ترفيه، توافر أسباب الراحة ـ ويتجاهلون الدين تماماً. هذه هي غالباً نتيجة تقديم الدنيا على الدين. إنها وجهة نظر مادية ضيقة عما يهم في الحياة.

هناك أيضاً آباء مسلمون ينكرون على أبنائهم كل وأي شيء في الدنيا، ويدّعون أن «كل ما يحتاجون إليه هو الدين». ربما لا يحظى هؤلاء الأطفال بتعليم مناسب، ولا يكون لديهم وقت أو حيّز للراحة والنمو حتى يصبحوا مؤهلين للعيش في العالم السيئ الكبير. تلك وجهة نظر ضيقة ومقيدة عمّا هو عليه الإسلام.

يركّز الإسلام على التوازن، وهو في المنتصف بين هؤلاء المتشددين. لا أحد منا يريد أبناءً ليس لديهم معرفة عن دينهم، والشيء بالشيء يذكر، لا نريد التضييق عليهم بحرمانهم من معرفة الدنيا والمسرّات الحلال (الشرعية)، ضمن حدود معقولة.

لهذا تكون الكثير من الأشياء في هذا العالم الضارة بصحتنا الذهنية والجسدية مغرية وجذّابة، حلوة وممتعة ـ وهي أكثر تأثيراً على أولادنا. اليوم، تأتي كل تلك الأشياء بأشكال جميلة وتستهدف أطفالنا مباشرة ـ على قنواتهم التلفازية، خلال عروض الرسوم المتحركة، على مستوى أبصارهم في المتاجر، وجميعها تخاطبهم.

قالت لي هاجر: «أعتقد أن الأطفال يتمتعون بالكثير من الحقوق لتقرير ما يناسبهم في مجتمعنا، وهذا يعني أنهم يقترفون الكثير من الأخطاء في اعتماد خياراتهم. أعتقد أن عليهم قبول حقيقة أننا آباؤهم، وأن معرفتنا، في هذه المرحلة، أفضل منهم».

عندما قالت ذلك، فكّرت في نوبات الغضب، الطعام الشهي الذي يتركونه في الأطباق، الإزعاج الذي لا ينتهي للحصول على الوجبات المليئة بالسكر والطعام السريع، العيون التي تحدّق على شاشات التلفاز طيلة ما بعد الظهر، ثياب الفتيات الصغيرات التي تشبه ملابس كريستينا أغويلرا، واكتشفت أنني أتفق معها. بالفعل، عندما كانت الكثيرات منا جديدات على الدين، مع أطفال صغار، حاولنا إغلاق الباب على كل تلك الأشياء.

بالعودة بضع سنوات في حياة مجتمعنا، قالت لي رابية: «عندما بدأت الأخوات ينجبن أطفالهن، كان هناك نوع من «أبعدوهم عن باقي العالم». صرامة كبيرة: ممنوع هذا، ممنوع ذاك.

على أي حال، يكبر الأولاد ونصبح أكثر تجربة، وتبدأ الأمور تتغير.

«يصل الأولاد إلى عمر الست أو سبع سنوات، ويبدؤون التعبير عن آرائهم وطرح الأسئلة. ثم يصلون إلى العاشرة، الحادية عشرة ويبدؤون باتخاذ المواقف. لهذا تبدأ الأخوات بتغيير أسلوبهن أيضاً: لا تستطيعين وضعهم في صندوق وإغلاق القفل عليهم. يدركن أن ذلك ليس عالماً مثالياً ينمو فيه أطفالهن؛ ليكونوا مسلمين مثاليين».

بالفعل، ندرك أننا لن نستطيع إبعادهم عن العالم الخارجي، الدنيا. إنها في كل مكان ولا يمكن تجاهلها، وكذلك أولادنا. لهذا يكون علينا أن نبدأ بمناقشة الحيّز، وأن نعرف متى نسمح ومتى نمنع، وما الذي نعرّضهم له وما الذي نخفيه عنهم، في ذلك الوقت على الأقل.

«لا تستطيعين تدثيرهم، ووضع قطن حولهم، لا يمكنكِ فعل ذلك. أنا وزوجي أكثر واقعية. مقاربته هي: لندعهم يتعرفون عليه ـ ليس كثيراً ـ على أن نكون هناك دائماً لنشرح لهم ما يجري. عندما تكونين صارمة كثيراً ثم تسمحين لهم بالانطلاق، يصلون على نحو ملائم إلى الجانب الآخر» مي.

شرحت هاجر الأمر بالطريقة الآتية: «أشعر بأنني لا أستطيع وضع ابني داخل شرنقة. إذا عشت في اليمن وكنت أعرف أننا سنعيش ونموت في اليمن، ستكون تربيته «إسلامية تماماً»، لكن كل المجتمعات التي عشت فيها تولي الدنيا أهمية كبيرة، ويكون من الصعب تجاهل ذلك. لكن إذا حاولت إنكار كل ذلك عليه، فسأصبح مضطهِدة، ولا أريد أن أكون مضطهِدة في هذه الدنيا».

## مدرسة قديمة، مدرسة جديدة

في القرآن، شدّد الله كثيراً على الأولاد في طاعة، الاحترام والتعامل بلطف مع الوالدين. في العديد من الآيات المختلفة، الإحسان إلى الوالدين مذكور مباشرة بعد عبادة الله وحده، وهو أساس الإيمان في الإسلام:

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾ [الإسراء: 23].

«إنه مزيج من الحب والاحترام. عندما أفكّر في تربيتي، أقول: «لماذا أطيع والدي؟ ليس أنني خائفة منه، ولكني أطيعه لأنني أحبّه وأحترمه كثيراً» سارة.

عندما سألت أم محمد عن أسلوب تربيتها، قالت لي: «سأقول، نعم، أسلوبي في التربية هو أن أولادي ينبغي أن يطيعوني، لكن في نهاية اليوم ينبغي أن أتعامل مع الأشياء بطريقة يفهمونها، لا يمكنني إملاء الإسلام على أطفالي. ينبغي أن أعلّمهم الإسلام بطريقة تجعلهم يرغبون باتبّاع تعاليمه».

هذا التشديد على الطاعة ينبغي أن يكون مغلّفاً بالطبيعة اللطيفة المحبة للعلاقة بين الأبوين والطفل، كما هو مذكور في القرآن والحديث. كان النبي ﷺ بنفسه محباً ولطيفاً للغاية مع الأطفال. مرة، رآه رجل يقبّل ابنه فقال: «لدي عشرة أطفال ولم أقبّل أحداً منهم من قبل». قال النبي ﷺ: «من لا يرحم يُرحم». قال النبي ﷺ أيضاً إن الله يُثيب على الرفق ما لا يثيبه على العنف.

«لا يمكنكِ أن تصبحي شديدة كما ترغبين طالما أنكِ تحظين بالتواصل، والاحترام والتقدير. وأظهري لهم الكثير من الحب؛ حتى يعرفوا أنكِ تحبينهم» هاجر.

لهذا، برغم أن الأبوين المسلمين يتوقعان مستوى من الطاعة والاحترام من أولادهما، هناك أيضاً تشديد كبير على إقامة علاقة محبة معهم. وعندما نجح الأمر، كنت متأثرة للغاية من الأطفال الذين يحترمون آباءهم ويفعلون ما يؤمرون به، لكن الذين لا يخافون أيضاً من التعبير عمّا يجيش في أنفسهم ويضحكون ويمرحون مع آبائهم. الفرق هو أنهم يعرفون متى يقومون بهذا الشيء ومتى يفعلون الأشياء الأخرى.

أسلوبي الخاص في التربية في حالة مستمرة من التدفق. كوني مسلمة ملتزمة، ليس ممكناً بالنسبة لي اعتماد مقاربة عدم التدخل في رعاية الأطفال، السماح لأولادي بفعل كل ما يجول في ذهنهم، دون أي حساب للحدود التي وضعها الله. بالنسبة للوالدين، يعد كل من الأب والأم مسؤولين عن تعليم أبنائهما الصواب من الخطأ، إضافة إلى أخلاق وآداب الإسلام، وهما مسؤولان أمام الله عن ذلك.

لكننا، مثل الكثير من الآباء من جيلنا، نواجه عدداً كبيراً من الآراء المتناقضة بشأن أفضل طريقة لتحقيق ذلك. نتأرجح بين الطرق التقليدية، طاعة الوالدين، احترام كبار السن، القيام بما تؤمر به، عدم الرد بفظاظة، والطريقة التحررية العصرية، احترمي رأي طفلك، امنحيه خيارات، تواصلي معه. وجدت أن كلتا الطريقتين لا تجديان نفعاً طيلة الوقت وأن علي المزج بينهما ومقارنتهما للتعامل مع مواقف مختلفة. هناك أوقات ينبغي أن أقوم بها بتذكير ابني بالله وما يحبّه له؛ ليقوم بالشيء الصحيح. في أوقات أخرى، مثل الأمهات في كل أنحاء العالم، أجد نفسي أتكلم باستمرار، أساوم، أفاوض وأضرب رأسي بالحائط المصنوع من الآجر. الإحباط مروع. مثل العديد من الآباء الآخرين، مسلمين وغير

مسلمين، ما زلنا نحاول الوصول إلى مكان بين هاتين الطريقتين المختلفتين في التربية، لم يتم حسم المعركة بعد.

## سنوات المراهقة

سنوات المراهقة مرحلة عصيبة في حياة كل شاب، لكنها كذلك خاصةً بالنسبة للمسلم. هناك الكثير من التناقضات، الكثير من الخيارات الصعبة، والكثير من الإغراءات. في المجتمع الغربي، سنوات المراهقة مثل نعمة وتمثّل وقتاً تحصلين فيه على استقلاليتك دون أن تتحملي الكثير من المسؤوليات، وتعملين فيها على شخصيتك فيما لا تزالين تحت سقف والديك. لهذا، مقدار معين من التمرّد والمشاكسة العامة شيئان متوقعان، إن لم يكن ضد كل أبوين، فمن كل أبوين يعتمدان طريقة التربية الأمريكية!

في الإسلام، الإنسان مسؤول عن تصرفاته حالما يصل مرحلة البلوغ. ليس هناك مدة يتم فيها إما التغاضي أو الانغماس في أنماط السلوك السيئة ـ في عيون الله، ليس هناك فرق بين المراهقة التي تتعاطى الممنوعات والراشدة التي تتعاطى الممنوعات ـ وتكون الآثام والعقوبات متساوية، عدا إن كان المرء يفتقر للمعرفة.

لا يوجد الكثير من المراهقين المسلمين في الغرب اليوم الذين يقدّرون هذه الحقيقة، ونتيجة لذلك تشهد حتى بيوت المسلمين مشاجرات بشأن الشعر، والملابس وثقوب الجسد. في الكثير من الحالات، تكون تلك الاشتباكات ناشئة عن الثقافة وليس الدين. يحاول بعض الآباء، الذين نشؤوا مع بعض المعايير الثقافية المعينة، تطبيقها على أولادهم المتغربين

والذيـن لا يمتلكـون، بالطبع، أياً منهـا. يعتقد هؤلاء الآباء أنـه لا بأس أن يتعلّم أولادهم أساليب البلد الذي يستضيفهم من الحضانة حتى المدارس الثانويـة، ثم يحاولون في مرحلة مـا فرض نوع من الثقافة والهوية القومية التـي لا يمتلكها الابـن. عندما قرأت عن حالات مثل هـذه، نزف قلبي من الآباء المحبطـين والمراهقين الأكثر إحباطاً وتشويشـاً. على أي حال، كنت قد شـهدت أمثلة عن مراهقين يترعرعون في الدين ويلتزمون به، مقتنعين بالخضـوع لأوامـر الله، ليس لأن آباءهـم مسـلمون، لكن لأنهـم يؤمنون بالإسـلام بأنفسـهم. تكـون هذه عـادة نتيجة مسـتوى عالٍ مـن المعرفة، العبادة والدراسـة ضـمن المنزل وجهود تقديم مخارج حلال للعوامل التي تسبب الإحباط للمراهقين عادة.

برغـم أن معظـم المراهقـين يتطلّعون نحـو آخر فرقة بـوب أو مطربة شـهيرة، ويقلّدون سـلوكهم وأسـلوبهم، إلا أن تلك ليسـت حـال المراهقة المسلمة الملتزمة.

أخبرتني رُميثة التي تبلغ من العمر ست عشرة سنة: «أتطلع نحو بعض صـفات الصـحابيات ـ صـحابة النبي ﷺ ـ وأتطلع نحو صـديقات أمي. أعتقد أنهن كائنات قويات: لقد تجاوزن صعاباً مختلفة وما زلن قويات».

على أي حال، برغم أن كل من يراها في الشـارع، مغطّاة بالسـواد من أعلى رأسـها إلى أخمص قدميها، سيجد صعوبة في تصديق ذلك، إلا أنها تشـترك ومثيلاتها في الكثير من الأشياء مع المراهقات الأخريات، «أعتقد أنني أشبه المراهقات الأخريات، بغض النظر عن حقيقة أننا مسلمات وأن هناك أشياء معينة لا نفعلها ويقمن بها. نحب الملابس والأزياء نفسها مثل أي شخص آخر».

لهذا، سألتها عمّا ترغب بفعله بحياتها، وقد أجابتني: «أريد فعل الكثير من الأشياء. أريد زيادة معرفتي بالدين، إضافة إلى ذلك أريد القيام بأشياء معينة من أجل مستقبلي؛ حتى أستطيع الحصول على عمل أفضل ومن ثم أشياء أفضل مثل منزل جميل، سيارة رائعة، أن أكون بحالة جيدة مادياً كما هو الحال مع ديني. أرغب بالسفر إلى الكثير من البلاد المختلفة وأريد أن أصبح خبيرة تجميل أو ممرضة أسنان أيضاً».

أُفّ! وهل هي في عجلة من أمرها للزواج؟

«أريد الزواج وإنجاب أطفال، لكن ذلك ليس على قمة لائحة أولوياتي، أريد إنهاء ما أقوم به أولاً».

سألت والدتها إذا كانت قلقة من أن يصبح أولادها ضعفاء ويتخلّوا عن الدين، وأن يرتدّوا عن الإسلام. قالت، بحصافتها المعهودة: «إنه ليس خوفاً بالنسبة لي. إنه شيء لا أرغب بأن يحدث، لكنه ليس شيئاً أخاف منه؛ لأنه في نهاية الأمر الله من يهديهم سواء السبيل».

شيء لطالما أزعجني، عندما يتعلق الأمر بالمراهقين المسلمين، هو المعايير الأخلاقية المزدوجة الشائعة في الكثير من المجتمعات الإسلامية، وينتج عن ذلك حبس الفتيات في المنزل؛ صوناً لطهارتهن وشرف العائلة، فيما يكون مسموحاً لأشقائهن بالخروج، وتناول الشراب، وتعاطي الممنوعات وإقامة العلاقات. يبدو أنه، كما هو الأمر في الكثير من المجتمعات في أنحاء العالم، لا بأس للفتيان بأن يخرقوا كل القواعد، فيما الويل للفتاة التي تخرج قليلاً عن المألوف. على أي حال، ليس لهذا الموقف أساس في الإسلام: يُتوقع من كل من الفتيان والفتيات أن يتقيدوا بحدود الله.

ناقشت مع أم محمد قضية تربية البنات والصبيان، واكتشفت أن طريقتها مختلفة تماماً عن التقليد السائد.

قالت: «تربية البنت ليست أصعب من تربية الصبي، من ناحيتي. إسلامياً، كل ما يكسبانه في هذه الحياة، يكون الثواب نفسه من الله. لهذا، برأيي، ينبغي أن تكون تربية ابني مطابقة لتربية ابنتي. ليس الأمر أن تكون ابنتي تقيّة وأن يخرج ابني إلى الشوارع، ينام مع الفتيات، يحدث ذلك في الكثير من المنازل ذات الثقافة الإسلامية. أشعر بأنه ينبغي على ابني التقيّد بالمبادئ ذاتها مثل ابنتي؛ لأن الإسلام لا يقول أن يفعل ابنك شيئاً وتفعل ابنتك شيئاً آخر».

سألت ياسمين عن آمالها لابنتها المراهقة الساذجة سُميّة، وقالت: «أولاً، أرغب بأن تصبح مسلمة تقية، تعرف مولاها، دينها وحقوقها، من المهم بالنسبة لي أن تعرف ابنتي كل ذلك».

## توازن العمل/الحياة

بوصفنا أمهات مسلمات، تتوزّع حياتنا بين ديننا (الدراسة، أعمال العبادة، وقت للتأمل)، عائلاتنا (الواجبات المنزلية، رعاية الأولاد، العناية بالزوج) وأنفسنا (تطوير أنفسنا، تدليل أنفسنا، الاسترخاء)، وكما هي حال معظم الأمهات، هذا الشيء الأخير غالباً ما يكون مهملاً! من واجبنا دراسة ديننا في جهودنا المستمرة؛ لنصبح عباداً أفضل لله. ليس لعائلاتنا فقط حقوق علينا، وإنما كما هو مذكور في الحديث، لأجسادنا علينا حقاً أيضاً، وتتضمن أن نعتني بها ونهتم بصحتنا.

«ينبغي أن أبذل جهداً خاصاً لضمان أنني أخصص وقتاً لنفسي، جسدي ودراسة الدين، إذا لم أفعل ذلك، فسأشعر حينها بأن لا قيمة لي» مي.

برغم أن معظم أخواتي أمهات متفرّغات لتلك المهمة، إلا أنهن لا يوجدن جميعهن في البيت، ويقمن بالأعمال المنزلية مع الكثير من الأطفال يجرون حولهن. إنهن أخوات من مجتمعنا استطعن تحقيق توازن مذهل في أعمالهن، وغالباً ما يؤدين الالتزامات العائلية ويعملن أو يدرسن. ليس سهلاً، برغم ذلك، إيجاد عمل ملائم إسلامياً، ويسمح لنا بتغطية أنفسنا بالطريقة التي نريد وتتوافق مع متطلباتنا العائلية.

على أي حال، تغلبت الكثير من الأخوات على هذه العقبة إما بإنشاء أعمالهن الخاصة أو بالعمل بشكل مستقل من المنزل. تدير إحدى الأخوات من مجتمعنا، كريمة، عمل توريد أطعمة ناجح للغاية خارج لندن؛ وهي صاحبة القول الفصل: تعمل مرتدية نقابها، وطعامها يتكلم نيابة عنها. كانت تقول لي دائماً: إنه إذا كان عملكِ جيداً بما فيه الكفاية، فسينجح لدى الناس بغض النظر عن مظهرك. لكن، كما هي حال الكثير من «الأمهات العاملات» الأخريات، لذلك الدور تحدّياته الخاصة به وحصته الكافية من المشكلات.

بدأت العمل عندما كان عمر ابني نحو الثلاثة شهور، أعتقد أنني لم أستطع منع نفسي. مع التشجيع من بعض الأمهات اللواتي يعشن بالقرب مني، قمت بإنشاء مدرسة منزلية إسلامية صغيرة للأطفال في الحي. بعد سنة، كان لدينا تسعة أطفال ونغطي كل موضوعات المناهج المدرسية،كانت قد أصبحت جزءاً رئيساً من حياتي.

obeikandl.com

على أي حال، عندما بدأ ابني يكبر، بدأت أشعر بالذنب أكثر فأكثر: لم يكن آنذاك يذهب للّعب في منزل إحدى الأخوات في الصباح وأراد أن يشترك في كل ما يخص الأولاد، مع عواقب تعطيل العمل. وعند ذلك، عندما ذهبت لزيارة صديقتي في ويلز، اكتشفت أن ابنة أخيها، التي كانت بنفس عمر ابني، تقول آنذاك كلمات وتتعرف إلى صور. كنت مذهولة، لم يكن لدي الوقت أو المخيلة لقراءة تلك الكتب الصغيرة مع ابني، وانتابني شعور مروّع. ماذا كنت أفعل؟ لم يكن الله ليسألني عن أولئك الأطفال الآخرين، كان سيسألني عن ابني. كيف كنت سأبرّر إهمال مسؤوليتي الأساسية من أجل العمل الذي لم أكن بحاجة للقيام به لأسباب مادية؟

قرّرت أن ابني ينبغي أن يكون أقصى أولوياتي، وقلت للآباء: إننا لن نفتتح المدرسة في الفصل الجديد. واستطعت تكريس وقتي لاستكشاف مواهب ابني وتطويرها. لكن برغم ذلك، شعرت بالقلق. كنت أعرف أن ما قمت به كان صائباً في عيون الله، بالمحصلة، كان ابني مسؤوليتي ولم أستطع تجاهل ذلك. لكن مواهبي الإبداعية كانت تتدفق، وبدأت أكتب قصصاً وشعراً للأطفال وأحمل فرشاة الرسم مجدداً، وكنت أعرف أن تلك أشياء أستطيع القيام بها بسهولة فيما أعتني باحتياجات ابني. وكان ذلك المعيار الرئيس بالنسبة لي، كنت أعرف أنني أرغب بالعمل، وأن أستفيد من وقتي بشكل مبدع ويكون لي اهتمامات خارج المنزل، لكني لم أكن أرغب بإهمال دوري الرئيس في أثناء القيام بذلك.

على أي حال، أحببت المخرج الذي وفّره لي النشاط الإبداعي وكتابة القصص المصوّرة للأطفال، واستمتعت بالعمل مع الناشرين. كان ذلك أيضاً امتيازاً لإنتاج كتب خيالية للأطفال عن ديننا، على أمل أن

أسهم في تقديم فهم أفضل للإسلام. عبّرت أخوات أخريات يعملن عن مشاعر مشابهة بشأن أعمالهن، إنها وسيلة تحرّر، نوع من التغيير ونشاط اجتماعي، إضافة إلى كونها مصدراً للدخل.

«الأمر صعب، لكني أستمتع به. أستمتع بعملي، أستمتع بالنشاط الاجتماعي ولقاء الناس. أحب الوجود بجانب الأخوات: هذا يناسب إيماني، سنتكلم عن أشياء، سنضحك وسنتناقش. لهذا حتى عندما أحظى بعطلة، أكون سعيدة للاستراحة، لكني أفتقد للوجود بجانب الأخوات كل يوم» أم محمد.

لكن لم يكن هناك أدنى شك في ذهني بأن دوري الرئيس يتمثّل بكوني زوجة وأماً، وبين الحين والآخر، كان علي تذكير نفسي بذلك، وأن أضع العمل جانباً للاعتناء باحتياجات عائلتي. لطالما كنت أشعر بقوة أنني إذا قمت بواجباتي فإن الله سيبارك كل شيء آخر أفعله بالنجاح. والحمد لله أنه قد سدّد خطاي حتى الآن.

وهكذا، بالتزامن مع إقامة علاقة وثيقة مع شبابنا، تعليمهم عن الله، شرح طريقتنا في الحياة والعالم من حولنا، قضاء وقت كافٍ معهم، الاستمتاع معاً وإنشاء حياة عائلية غنية ومتنوعة، نأمل بوصفنا مسلمين في الغرب بأن نمنح أولادنا أفضل ما يمكن للطفولة الإسلامية أن تقدّمه. وإذا نجح الأمر، لن يشعر أولادنا بالقسوة ـ سيجدون السعادة، المتعة والإنجاز ضمن طيّات الإسلام.

«أنا فخورة بكوني مسلمة وأريد أن يشعر ابني كذلك. أعتقد أنه إذا شعر بامتياز كونه مسلماً، فسأحارب كل الأشياء التي تحرّك رغباته. لا أريده أن يشعر بأنه يفتقر لأي شيء» ليلى.

إنشاء عائلة مسلمة حقاً ليس عملاً سهلاً، لكنه عمل نبيل. إنها إحدى أسس البناء المتين لمجتمعنا ومستقبل أجيالنا؛ لأنه ينتج عنها أطفال ملتزمون، على أمل أن يكبروا راشدين ملتزمين ويزيدوا من ذرية المسلمين الملتزمين. بهذه الطريقة، وعبر الالتزام بمبادئنا والعيش وفقاً لمشيئة مولانا، الله، تعدّ العائلة المسلمة نموذجاً رائعاً عمّا يمكن لطريقة الحياة الإسلامية أن تقدّمه للمجتمع.

opeikandl.com